استعادة

ترك الشاعر والمترجم اللبناني، الذي تمرّ هذا العام ذكرى رحيله السبعون، مؤلّفات تعكس تطوّر الوعي السياسي حول فلسطين في زمنه، من بينها كتابه «الانتداب الفلسطيني باطل ومحال»، الذي قدّم فيه مرافعة قانونية وسياسية جذرية ضدّ الاستعمار البريطاني

محمود منير

وديع البستاني في ذكرى رحيله

نصوص مؤسِّسة ضدّ استعمار فلسطين

شهد عقْد الثلاثينيات تحوّلاً مهمّاً في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية تبلور في اتجاهيْن؛ الأوّل تمثّل في تصاعد الاحتجاجات الجماهيرية ضدّ سلطات الاستعمار البريطانية، خصوصاً بعد اعتداءات يهود على حائط البُراق بالحرم القدسي في منتصف آب/ أغسطس 1929، لتقود الانتفاضات الشعبية المتتالية إلى الثورة الكبرى بعد استشهاد عزّ الدين القسام عام 1935. والاتجاه الثاني يتّصل بتطوّر الوعي السياسي بطبيعة تلك المرحلة الحرجة، وهو ما عكسته العديد من القراءات المعمّقة للواقع وجملة من التصوّرات حول النضال الفلسطيني لدى عدد من المفكّرين والسياسيّين، دون إغفال مؤلّفات ظهرت في فترة أبكر ونبّهت إلى مخاطر الصهيونية، ومنها «الصهيونية: ملخّص تاريخها، غايتها وامتدادها حتى سنة 1905» (1911) لنجيب نصّار، و«السيونيزم أي المسألة الصهيونية». أوّل دراسة علمية بالعربية عن الصهيونية» (1913) لمحمد روحي الخالدي. واحدٌ من النصوص المؤسّسة المنشورة في سنوات الثلاثينيات، كان للشاعر والمترجم والمناضل اللبناني وديع البستاني (1886 - 1954)، الذي انخرط في العمل السياسي وأسهم في تشكيل العديد من الجمعيات والأطر الفلسطينية آنذاك، ولم يغادر حيفا التي كانت مسكنه ووطنه حتى احتلّت عصابات الهاغاناه بيته سنة 1948، وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى عام 1953، فاضطر لمغادرته المدينة والعودة إلى لبنان. بالإضافة إلى ترجماته الشعرية الكثيرة عن الأدب الهندي ومنها مختارات لطاغور وكذلك «المهابهاراتا: ملحمة الهند الكبرى»، والأدب الإنكليزي، ولرباعيات عمر الخيّام أيضاً، ترك ديوانه «الفلسطينيات» (1946) الذي يقول في واحدة من قصائده: «يا فلسطينُ بلادَ الله يا/ كوكباً شُرّف هذا الكوكبا»، ويخاطب فلسطين في قصيدة ثانية: «وجب الحبّ والقلب وَجَبا/ يا بلادي وقضى ما وَجبا/ أين ليلى؟ فأنا مجنونها/ وشبابي في هواها ذهبا». كما ترجم كتاب «خمسون عاماً في فلسطين» (1948) للمبشرة الإنكليزية فرنسيس إملي نيوتن، التي عُرفت بانحيازها للفلسطينيين وتوثيقها أعمال العنف التي ارتكبها المستعمر البريطاني والعصابات اليهودية بحقّهم.

لكن كتابه الأساسي الذي وضع فيه خلاصة فكره ورأيه كان «الانتداب الفلسطيني باطل ومحال» الصادر عام 1936، وفيه مرافعة قانونية وسياسية جذرية ضدّ استعمار بريطانيا لأرض فلسطين، بالعودة إلى جميع الاتفاقيات والتفاهمات الدولية التي فنّد من خلالها بطلان الانتداب، وحقّ اليهود في إقامة وطنٍ لهم بحسب وعد بلفور، وكذلك التناقضات التي تضمّنتها التزامات بريطانيا الانتدابية والفشل في تحقيقها بسبب انحيازها التامّ للصهيونية.

يستند البستاني، الذي مرّت قبل أيام ذكرى رحيله السبعون، إلى «معاهدة لوزان» التي وقّعها الأتراك مع القوى الأوروبية في 24 تموز/ يوليو 1923، إثر هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، مؤكّداً في مفتتح المبحث الأول من الكتاب بطلان الانتداب بحكم المادّة 16 من المعاهدة، وحكم المادّة 20 والفقرة الرابعة من المادّة 22 من عهد «جامعة الأمم» (عصبة الأمم). ويرى أنّ المادة 16 من «معاهدة لوزان»: «أفاضت على شعب فلسطين حقّ الاعتراف به ‹أمّة مستقلّة›»، وفقاً للفقرة الرابعة من المادة 22 من عهد عصبة الأمم، لافتاً إلى مسألة بالغة الأهمية إلى أنه عند التوقيع على المعاهدة «كان الانتداب البريطاني غير نافذ النفاذ القانوني، وما وقع نفاذه هذا إلّا في 29 أيلول/ سبتمبر 1923» ما يعني بوضوح ودون مواربة باعتماد «لوزان» مرجعية سابقة لكلّ الاتفاقيات الدولية اللاحقة بخصوص فلسطين.

ويبني البستاني مرافعته في نقاط مرقّمة، يُثبت في كلّ نقطة منها مخالفة السياسات البريطانية للمواثيق الدولية مدّعماً ادّعاءه بالنصوص القانونية، ومنها «معاهدة سيفر»، ونصوص الانتداب على سوريّة والعراق وفلسطين والأردن، وإقرارات المسؤولين البريطانيين أنفسهم، في مراسلات السير مكماهون مع الشريف حسين عام 1916، على سبيل المثال.

كما يدلّل على مناقضة «وعد بلفور» مع المادة 20 من عهد «عصبة الأمم»، التي تنصّ بصريح العبارة على إلغاء الانضمام للعصبة أي التزام أو تفاهم سبق يتعارض مع العهد، وهو ما ينطبق على بلفور نفسه الذي يعطي لليهود حقوقاً سياسية في فلسطين ويعترف بصلة تاريخية لهم فيها، رغم أنهم لا يعدّون شعباً وفق «معاهدة لوزان» التي وُضعت لتقرير مصير الشعوب التي كانت خاضعة للدولة العثمانية؛ العراقية والسورية واللبنانية والفلسطينية والأردنية.

في عشرة مباحث، يورد البستاني كافة البراهين والإثباتات على بطلان ما قامت به بريطانيا التي بدأ احتلالها لفلسطين في كانون الأول/ ديسمبر عام 1917، لكنها لم تتمكّن من تثبيت سلطة انتدابها حتى أيلول/ سبتمبر سنة 1923؛ أي بعد توقيعها «معاهدة لوزان» التي أقرّت حقّ شعوب المنطقة بتقرير مصيرها، وبالتالي فإن جميع الالتزامات والإجراءات التي قام بها المستعمر البريطاني على الأرض خلال الأعوام الستّة، وأسّست لاحتلال فلسطين عام 1948، تعتبر باطلةً.

انشغل البستاني طوال أكثر من أربعة عقود قضاها في فلسطين، بالكتابة والعمل السياسي بناءً على فهمه للقانون الدولي الذي يدحض ادّعاء بريطانيا بـ«إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي، وإدارة فلسطين وفقاً لمصالح السكان» كما تشير التزاماتها الانتدابية؛ الذي يمثّل تناقضاً صارخاً أخفى تلاعبها وسعيها الدؤوب لتأسيس كيان صهيوني في فلسطين.

في وثيقة بنشرها موقع «ذاكرة فلسطين»، الذي أطلقه «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» مؤخّراً، خاطب البستاني سكرتير «اللجنة العربية العليا» في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1936، في رسالة أبدى خلالها استعداده لتقديم محاضرات من شأنها المساهمة في عمل سياسي مخطّط يهدف إلى إبطال الانتداب البريطاني أو تعديل صيغته بمنح حقوق لليهود. شكّلت تلك المحاولة انشغاله السياسي طوال حياته، وجاءت تعبيراً عن إيمانه بإمكانية تغيير الواقع قبل خروج البريطانيين من فلسطين وتثبيت سياساتهم الجائرة؛ طموح ظلّ أسير الحبر والورق!

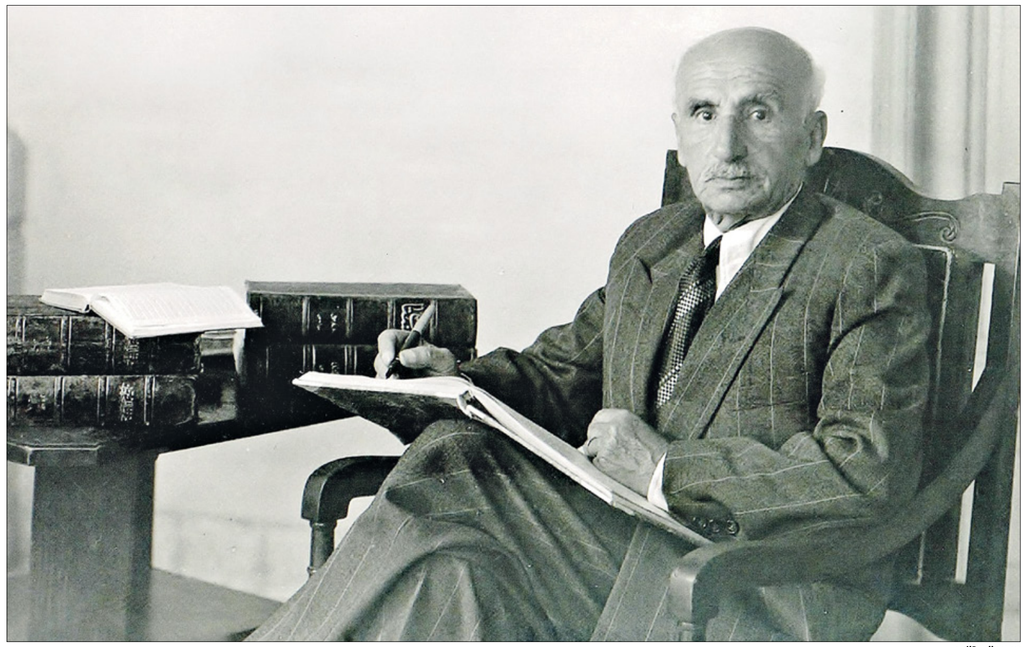
وديع البستاني

> ينبي مرافعته في نقاط تُثبت مخالفة بريطانيا للمواثيق الدولية
>
> ضمّ ديوانه قصائد تمجّد فلسطين التي عاش فيها أربعة عقود

من الدبية إلى القدس

وُلد وديع البستاني في بلدة الدبية بجبل لبنان لعائلة تعود أصولها إلى اللاذقية في سورية، وحاز إجازة في العلوم والآداب من «الجامعة الأميركية» في بيروت عام 1907، والتي درّس فيها العربية والفرنسية حتى 1909. انتقل للإقامة في القدس سنة 1917، وشغل عدّة مواقع في إدارة الانتداب البريطاني، لكنه استقال بعد ثلاث سنوات ليدرس الحقوق ويعمل في حقل المحاماة دفاعاً عن الحقوق الفلسطينية وممثّلاً لها في محافل دولية.

إطلالة

في الحنين إلى الخلاص من عنف الاستعمار

المذابح والآلام من بعيد

العنف الاستعماري الوحشي أساس البلاء، وهو الذراع العسكرية للراسمالية التي تحميه بالأسلحة والمراوغات اللغوية والإجرام اللامتناهي

عاطف الشاعر

يعيش العالم الآن على وقع العنف، الاستعماري بشكل خاصّ، وصور العنف في أماكن كثيرة من العالم، وخصوصاً في ما يُسمّى «الشرق الأوسط». والعنف شيء بغيض بحدّ ذاته، فهو انشغال الروح بذاتها وبقائها بدلاً من انشغالها بالحياة، وما فيها ممّا يُثري الروح ويسمو بها، نحو النهاية التي هي مصير كلّ انسان. العنف حالة تشويه للإنسان، يصيبه في أعزّ ما يملك، وإن لم يكن مباشراً ومُعطياً للجسد، فهو بلا شكّ من مهلكات الروح والمشاعر، وتتأثر به سلباً كلّ الكليّات العقلية والحسية. في حالة الإنسانية المستقيمة، لا يجب على الإنسان أن يفرّق بين البشر، ولا يجب أن يفكّر إلّا في ما يرتقي بالحياة مع النفس والآخرين، ويُفضي إلى الشعور بالسلم والأمان والسموّ. حينها ينشغل الإنسان بالجمال، جمال الطبيعة وجمال الإنسانية حيثما وُجدت، والبشر من ناحية العلاقات الاجتماعية وغيرها، والتي تولّد مشاعر الودّ والدفء.

لكن الحياة البشرية نادراً ما تتّكئ على استقامة تامّة، فلا تخلو من العنف. إنّها ملبئة بافات السياسة، والسياسيّين، والقوّة والدافع المقيت من أجلها. ولأنّ السياسة الحديثة نادراً ما تحيد عن طريق المصالح الضيّقة، وتعجّ بالتفرقة على أساس الدين والعرق واللون والأيديولوجيا، يصبح العنف في هذه الحالة حالة إخضاع على سبيل الاستعباد، وينطبق هذا بشكل كبير على «إسرائيل» وجحيم النار الذي تصبّه على رؤوس الناس في غزة كلّ يوم لأكثر من مئة وعشرين يوماً.

لا بدّ أنّ هذا الكمّ من العنف الإبادي الذي يهدف إلى إخضاع سكّان غزّة، وفلسطين عموماً، بقصد الدمار بكلّ معاني الكلمة، الجسدي، والمادي، والروحي والنفسي، ودمار أيّ فكرة ممكنة عن المستقبل في هذه البلاد. العنف، في هذه الحالة، قضاء على الحياة وعلى ذاكرة الحياة، وعلى كلّ ما يُفضي إليها. هو كيٌّ ساديٌّ للوعي، وإخضاع للقبول بمن هو «سيّد» ومن هو مأمور، ولا شيء آخر. فعند الحديث عن نصر مطلق، إنما يُعنى بذلك الإخضاع المطلق، فلا سيادة لغير المحتلّ وأدواته القاتلة. العنف الاستعماري الوحشي أساس البلاء، وهو الذراع العسكرية للرأسمالية التي تحميه بالأسلحة والمراوغات اللغوية والإجرام اللامتناهي. و«إسرائيل» تتمادى في فرض وتطبيع العنف كطريقة حياة على الشعب الفلسطيني والعرب عموماً، فتشوّه الجميع بقبح أفعالها، وتجرّ داعميها في الغرب نحو مزيد من العنف والدمار والتشويه ضدّ البلاد العربية، من لبنان إلى اليمن إلى سورية والعراق، ومن يعلم من سيلحقهم؟ منهجية الإجرام والعنف التي تقوم عليها «إسرائيل» منهجية راسخة وتتفاقم، وبانجرار الغرب وراءها فإنه يرسّخ لمرحلة جديدة من العذاب العربي والمعاناة والألم الكبير في هذه المنطقة المثخنة بالجراح على يد المستعمرين وأدواتهم.

> يُفرض العنف كطريقة حياة على الفلسطينيّين والعرب عموماً

ولا يسلمُ من العنف أولئك الذين يتابعون المذابح والآلام من بعيد. نحن أيضاً ضحايا، ضحايا لأنّنا من هناك، ونعرف هناك وأهل هناك، ونعرف أنّهم طيّبون وأنّهم يستحقّون ويحبّون الحياة ما استطاعوا إليها سبيلاً، وأن ما يحدث لهم لا يجب أن يحدث لأحد. ونريد لهم النجاة، والحياة العادية الرتيبة، بكلّ نعمها وتذبذباتها. نريد لهم الخلاص من الرعب، والخلاص من الخوف من الأسوأ، والخلاص من مشاعر الفقد والعجز. نريد لهم الحياة التي يحنّون إليها ويدعون من أجلها، ويقاومون من أجلها، حياة آمنة وكريمة.

نحن البعيدين لا نسلم من العنف، فعقولنا ترزح تحت وطأة موجات القلق والخوف على أهلنا، ولغتنا تصارع، وأحلامنا معجونة بما نرى من موت وقهر مستمرّين. وسيأخذنا كثير من الوقت والجهد والتأمّل لنتجاوز أنفسنا المصابة بأصداء الجراح والدمار، وأنفسنا التي تحنّ إلى الخلاص من عنف الاستعمار وبشاعته، وترنو إلى السلام حقّاً، لأهلنا ولنا.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

جزء من «غرنيكا فلسطين» لـ محمد سباعنة

تلويحة

رأيت روحه تطير... لم تبتعد كثيراً

نعيٌ كاذب

ها هو أخي نضال هنا، ممدّداً قبالتي على سرير أزرق. امتنع الطبيب عن الكلام. دخلتُ الى غرفته الفارغة إلّا منه، ورأيت روحه تطير. لم تبتعد كثيراً

غدير أبو سنينة

ماذا تفعل كلُّ هذه النسوة هنا؟ لمَ كلّ هذا الضجيج؟ لماذا توزّع المصاحف في بيتنا؟ هل تحسبن أنفسكن في مأتم؟ لماذا تتحدّث هذه السيّدة عن فضل الصبر؟ وتلك، تربطنا بها قرابةٌ بعيدة، تسمح لنفسها فجأة بالحديث عن "لباس المرأة الشرعي"، لمَ تبدو بنات عمي مجبرات على الإنصات؟ هاك جارتنا القديمة سوسن.. كيف استدلّت على بيتنا الجديد؟

- أهلاً يا سوسن. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- «العوض بسلامتك»، تقول.

- من يعوّض من؟ أقول.

يأتي اسم نضال على لسان سوسن، أوف أوف أوف.. ما هذا الانفتاح؟ ألم يكن ممنوعاً عليك النظر إليه أيام المراهقة؟ كيف تذكرينه الآن ولديك خمسة أطفال يا سوسن؟ تتحدّثين عنه بصيغة الماضي، تدعين له بالرحمة، تجلسين وفي يدك جزء من القرآن. سأشارك في الختمة، تقولين.

من الذي حدفك علينا يا سوسن؟ أهي إحدى مؤامراتك؟ تستخدمين اسم الله لتذكري نضال.. «ليرحم الله نضال»، تردّدين براحة تامّة؟ يا سوسن، يا سيّدة الخباثة؟ الحمد لله ثمّ الحمد لله لم تكوني من نصيبه.

وانتِ.. يا نسوان الحيّ، يا نسوان العائلة، من دلّكن علينا؟ هل استخدمتن خرائط غوغل الغبيّة؟ هيا يا نسوان، انصرفن، قال لساني المنعقد عن الكلام، للحشد الذي رأيته فجأة ينعى أخي، وعلقت صرخة في كبدي.. «لا تؤاخذنني يا نسوان. معلش.. كلّ واحدة إلى بيتها، أو ابحثن جدّياً عن بيت العزاء الصحيح بعيداً عن بيتنا.. يلّا.. يلّا.. قال الله ولا فالكن.. من هذا الذي تتحدّثن عنه بصفة الماضي؟ كان كذا وكذا.. من هذا الذي كان؟ من هذا الذي لن يكون؟ توقّفن عن ترديد هذه الترهات».

ها هو هنا، ها هو أخي نضال، هنا، ممدّدا قبالتي على سرير أزرق. امتنع الطبيب عن الكلام. لم يقل ما تردّده النسوة.. دخلتُ إلى غرفته الفارغة إلّا منه، وهو في شرنقة بيضاء، ورأيت روحه تطير.. لم تبتعد كثيراً. لم تكن قد فارقت الغرفة الصغيرة بعد.. ولذا صرختُ بها: «أ ولم يكن لحرف الخاء في «أخ» أن يتشكّل في حنجرتي المقطّعة. صرخت «أ» أخرى وثالثة ورابعة وأنا أحاول أن ألقف شيئاً ما في الفراغ لأعيده لهذا الجسد الذي تمدّدت بجانبه على ذلك السرير وحضنته دون أن يحرّك ساكناً.

هززته بعنفٍ ما كان لغيري أن يسميه «جثّة هامدة».

هززته بقوّة لأوقظه ممّا ظننته غفوةً. جاء أحدهم، مشيراً بإصبعه للسرير، مستذكراً أخذ «الجثّة» للطب الشرعي. نظرت إليه. لم أدرك حينها إن كان يقصدني أنا أم هو.

> هززت بعنف ما كان لغيري أن يسميه «جثّة هامدة»، هززته لأوقظه

جزء من عمل لـ لاريسا صنصور

بطاقة

صحافية ومترجمة فلسطينية من مواليد الأردن عام 1980. حاصلة على ماجستير في اللغة الإسبانية وآدابها وبكالوريوس في اللغة الفرنسية. هاجرت عام 2004 إلى نيكاراغوا التي تقيم فيها حتى اليوم. ترجمت نصوصاً لمئات الشعراء من أميركا اللاتينية والعالم الهسباني؛ كما ترجمت لعدّة شعراء عرب إلى الإسبانية. من ترجماتها: «مختارات شعراء عرب من أصول أميركولاتينية» (2017)، و«كتاب الحرف الحزينة» (2016) لميغيل مالدونادو، و«نشيد المور» مختارات من العربية إلى الإسبانية لأربعة شعراء عرب (2015).

فعاليات

حتى مساء بعد غد السبت، تتواصل في حدائق «جامعة المعقل» بمدينة البصرة العراقية، فعاليات الدورة الخامسة والثلاثين من **مهرجان المربد الشعري** التي انطلقت الأربعاء الماضي. تحلّ فلسطين ضيف شرف الدورة الحالية التي يشارك فيها شعراء ونقّاد من ستّة عشر بلداً عربياً، بالإضافة إلى العراق.

تنظّم «حملة التضامن مع فلسطين» (PSC)، عند السادسة من مساء الثلاثاء المقبل، ندوة افتراضية بعنوان **قوّة المقاطعة: التنظيم من اجل فلسطين في ويلز**، تضيء كيفية المشاركة في الحملات من اجل حرية الفلسطينيّين، وكيف تقوم حملات مقاطعة «اسرائيل» بشكل فعّال وهادف من التضامن. يشارك في الندوة كلّ من الناشطين: **بيثان سيّد**، و**فيونا بن شقرون**، و**بن جمال**، و**كائي بروكس**.

تُختتم، مساء غدٍ الجمعة، في «المركب الثقافي» بمدينة سيانة التونسية فعاليات الدورة الثالثة من تظاهرة **إيقاظ الفنون**، والتي انطلقت السبت الماضي. يتضمّن البرنامج مجموعة من الورشات الفنّية والعروض السينمائية والمسرحية، الى جانب عرض «أحلام الطفل الفلسطيني» الذي تقدّمه فرقة «البايه الوطني للطفولة» في تونس.

المهاجرون العرب الحضارم في إندونيسيا: تاريخ غنّي ومعقّد عنوان الندوة التي تنظّمها «مكتبة قطر الوطنية» في الدوحة عند الخامسة والنصف من مساء بعد غدٍ السبت. تضيء الندوة، التي يتحدّث فيها **إنغسينغ هو**، و**فاريش نور**، و**فاطمة حسين**، هجرة العديد من التجار والمدرّسين من حضرموت في القرن الـ12 الى جنوب شرق آسيا.